

المحاضرة الأولى:

النقد العربي قبيل عصر النهضة.

كحال الأدب، عرف النقد في الفترة العثمانية-التي تعد المرحلة التاريخية السابقة لفترة النهضة الأدبية عند العرب- ركوداً واحتباساً ملحوظاً، إذ جفت الأقلام ونضبت القرائح فلم يعد هناك من يبدع في مجال الشعر والنثر إلا قليلاً وإذا وجدنا عينة من شعر أونثر فإنها ملئ بالمحسنات الشكلية، تعلوها طلاوة

توحي بالحلاوة، لا تخفي وراءها سوى معنى مبتذل أو فكرة غير لافتة للانتباه ولا للإعجاب الذي يستدعيه الإبداع والخروج عن المعهود.

التكلف أضحي باد للعيان والسجع والجناس والتورية باتت تعبر عن مجالات ضيقة لعل أبرزها النقيضان: الإباحية والزهد، التهئة والتعزية، الاعتذار والمجاملة في النصوص النثرية، أما التلاعب بالألفاظ والمعاني وكثرة التصريح فطغى على النصوص الشعرية التي أضحت نظماً بارداً فقدت بريقها وكشفت عن زيف عاطفتها ومحدودية فكرها.

إن ما يميز هذه الفترة أيضاً في الأدب كثرة الأحاجي والألغاز وكثرة التأريخ في الشعر في محاولة لجعل هذا الجنس من الأدب وسيلة ترفيه وتسلية أكثر من كونه أداة للتوجيه والتوعية وصار الأدب جامداً وقد أثر هذا على عجلة النقد فعرفل سيرها فلم نكد نظفر بنقاد في الشعر أو النثر.

صورة الأدب والنقد هذه كانت وراءها ظروف سياسية اجتماعية واقتصادية أسهمت في تشكيلها، ولعل أهمها تعصب الأتراك للغتهم وجهلهم باللغة العربية لذلك انصرفوا عن تشجيع الأدب وكل ما يتعلق به من منابع الثقافة وأسباب التقدم وأغلقت الأبواب في وجه الشعراء والأدباء والخطباء، ولم يعد هناك داعٍ لتقريب المبدعين أو تشجيعهم. فضلا عن استحواذهم على التراث العلمي والأدبي في البلاد العربية ونقله إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية، إضافة إلى فرضهم لعزلة فكرية وثقافية على الأقطار التي حكموها، فأهمل التعليم وانطفأت جذوة الثقافة ولم يبق دور للمعلم إلا في المساجد.

سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية أجبرت المبدعين إلى الانصراف لطلب لقمة العيش من خلال مختلف الحرف.

كان هذا حال الأدب والنقد عامة قبل عصر النهضة الأدبية فمالهما في عصر النهضة؟ ومتى كانت النهضة؟ وكيف ومن أين بدأت؟

بداية العصر الحديث:

يؤرخ الباحثون لفترة النهضة الأدبية بحملة نابليون على مصر سنة 1798م التي كانت خاضعة للحكم العثماني وقد واجه هذا الغزو مقاومة من طرف المصريين ومن

طرف الحامية العثمانية التي كانت موجودة في مصر آنذاك فانسحب نابليون مهزوماً سنة 1801م.

أسفر ظاهر الحملة عن غزو ولكن المصريين استطاعوا أن يستفيدوا من باطنها الذي أفاقهم من سباتهم العميق وجعلهم يدخلون مرحلة فكرية مختلفة جذرياً واستطاعوا تأسيس قاعدة متينة انبعث منها مفكرون أدباء ونقاد بعثوا التراث العربي الدفين من مرقدته.

عوامل نهضة النقد العربي في العصر الحديث:

لقد اجتمعت عوامل مادية ومعنوية لتحقيق نهضة النقد الأدبي في العصر الحديث منها ما كان ذا صلة بالجانب السياسي ومنها ما كان ذا صلة بالجانب الثقافي التعليمي ، أما الجانب الآخر فكان مرتبطاً بالعقول الفذة والعزائم المتقدمة ، هذه العوامل تفاعلت في مجموعها وهيأت الظروف لهذه النهضة وأدت إلى نشوء تيارات ثقافية مختلفة ، ومن أهم هذه العوامل مايلي:

الحس الوطني: نقصد به يقظة الشعب المصري بعد الانتصار على الاستعمار وشعوره بأنه صاحب أرض و وطن، يتشرف بالانتماء إليه فزادت من هنا الرغبة في الإصلاح وتبنى المصريون قضاياً مصيرية ،قادوا من خلالها حركات الإصلاح على جميع الأصعدة، وقد دعمهم بداية الأمر الخليفة العثماني "محمد علي" حيث أعاد تنظيم الدواوين وشؤون مصر الداخلية، واختار من المصريين رجالاً للعمل في الشؤون المالية والإدارية وأنشأ جيشاً قوياً لبناء دولة عصرية وانفتح على العالم الغربي ،بايفاد البعثات العلمية إلى أوروبا.

قضى "محمد علي" على المماليك واحتكر ملكية الأراضي، وألغى الملكية الفردية ،وأمر بتوزيع الأراضي على الفلاحين، ثم نشط حركة التجارة والصناعة في مصر وأضحت مصر دولة زراعية، إلا أنه انقلب على المصريين وحاول تأسيس إمبراطورية خاصة به وبأبنائه من بعده.وتنكر لوعوده السابقة واستبد بالمنصب وبالرأي فثار عليه المصريون بثورة عرفت بالثورة العربية بزعامة "أحمد عرابي"، ومساعدته "عبد الله النديم".

ومن بعدها جاءت ثورة "سعد زغلول" سنة 1919م ودعمتها أصوات زعماء كثر "كمصطفى كمال" و"محمد فريد".

وفي هذا الإطار كتبت كثير من المقالات، وألقيت الخطب السياسية لمقاومة الاستعمار الفرنسي والعثماني.

أدى الحس الوطني ومناهضة المصريين للاستعمار إلى استعادة الأمة لحياتها وبدأ نهوضها وانتعاش فكرها (علمياً، ثقافياً، أدبياً، وحتى نقدياً).

التعليم: عندما تولى "محمد علي" حكم مصر، لم يكن في البلاد اهتمام بدور العلم إلا ما كان في المساجد الكبرى وحلقاتها، فكان التعليم مقصوراً على علوم الدين: كالفقه، والتفسير والحديث، والعقيدة، وبعض علوم اللغة كالنحو والبلاغة القديمة، وبفضل "محمد علي" أنشأت المدارس والجامعات، فأوجد مدرسة دار العلوم، مدرسة القضاء الشرعي، وأنشأ مدرسة حربية، مدرسة للطب، مدرسة الصيدلة، مدرسة الهندسة وعداداً من المدارس الابتدائية، وقد استعان بالأساتذة الأجانب والمترجمين من سوريا والمغرب.

ثم أسس مدرسة الألسن سنة 1835م باقتراح من "رفاعة الطهطاوي" حيث ترجمت الكثير من المؤلفات.

وأدخل "علي مبارك" البنات للتعليم في المدارس، فتوسعت حلقات العلم بعدما كانت لا تتعدى المساجد (الأزهر الشريف)، فكثرت المثقفون والقراء، وظهرت المواهب الأدبية، ونشطت الآراء النقدية ثم تجاوزت هذه النهضة أسوار المدارس والجامعات لتنتقل إلى المؤتمرات والندوات، والصحف والمجلات.

وظهر العلماء والأدباء الذين حصلوا على حظ وافر من التعليم، فالشيخ "حسين المرصفي"، والشيخ "محمد عبده"، و"المنفلوطي"، و"طه حسين"، و"أحمد حسن الزيات" كلهم اجتهدوا في تحصيل العلم ونهلوا من منابعه، واستطاعوا أن يقودوا حركة البعث والإحياء بعد أن حققوا ودققوا، مختلف النصوص الإبداعية والنقدية القديمة.

الطباعة: اصطحب الفرنسيون معهم أثناء حملتهم على مصر مطبعة استخدموها في طباعة المنشورات التي كانوا يوزعونها على المصريين. محاولين إقناعهم بأنهم جاءوا من أجل مصلحتهم وتحريرهم وتقديمهم، وعند رحيلهم تركوا هذه المطبعة.

ولما تولى "محمد علي" حكم البلاد أنشأ مطبعة أخرى لتعميم التعليم، والتسريع من وتيرة التثقيف، وأمر بإعادة طباعة أمهات الكتب فتيسر حصول مختلف شرائح المجتمع، على هذه الكتب مثل "البيان والتبيين" للجاحظ، و"المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" لابن الأثير و"الكمال" للمبرد و"الأغاني" لأبي فرج الأصفهاني. وكان لطباعة هذه الكتب أثر بالغ في التعرف على الحركة النقدية والاحتكاك بالنماذج التطبيقية، والموازنات، والحكم على الصياغة الأدبية.

الصحافة: ارتبط وجود الصحافة بالطباعة وتقدمها، وارتبطت بالحملة الفرنسية أيضاً، أين كان الفرنسيون يصدرون جريدتين واحدة بالفرنسية والأخرى بالعربية، ثم أنشأ "محمد علي" صحيفة "جرنال الخديوي" سنة 1822م، باللغتين العربية والتركية. وفي سنة 1828م صدرت صحيفة "الوقائع المصرية" وأشرف على إصدارها الشيخ "حسن العطار" بمساعدة جملة من العلماء والمتأدبين "كرفاعة الطهطاوي" و"محمد عبده" وغيرهم، عنيت بالأخبار الرسمية

أما "مجلة اليعسوب" فكانت ذات طابع علمي، سياسي، أدبي وقد أنشأها "عبد الله أبو السعود" وهو أحد أبناء الأزهر وعلم من أعلام الأدب. وفي سنة 1869م أصدر "محمد عثمان جلال" و"إبراهيم المويلحي" صحيفة "نزهة الأفكار" ثم صدرت صحيفة "روضة المدارس" "لعلي مبارك" سنة 1870م بإشراف "رفاعة الطهطاوي".

وواصلت الصحافة تطورها ونهضتها بعد مجيء أدباء الشام وسوريا "كسليم نقلى" و"بشارة نقلى" و"أديب إسحاق" و"سليم نقاش" إلى مصر أين اشتغلوا بالصحافة وأصدروا عدداً من الصحف "كالكوكب الشرقي"، "السليم وبشارة نقلى" و"المحروسة" لأديب إسحاق" وأسهموا في تدريب عدد لا بأس به من الصحفيين المصريين. أشرف على هذه الصحف وترأسها العلماء والمتأدبون والنقاد من خريجي الأزهر والمدارس التعليمية ووقفوا عليها ووجهوا محرري مقالاتها وأرشدوهم إلى تخليص الكتابة من قيود التكلف وعمدوا إلى تحري الأساليب الصحيحة البريئة من تقاليد الجمود والضعف والتخلف الموروثة من العصر العثماني وكان الاهتمام بالفكرة بدل الاهتمام باللفظ، السجع والجناس وغيرها من ألوان البديع.

لذلك صرنا نرى للصحافة دور بارز يتجلى أساساً في نشر الأدب، التعريف به وبالنقاد وطرح آرائهم النقدية فتعرف جمهور الناشئين، من الكتاب على الاتجاهات الأدبية الحديثة، والنظريات النقدية التي كانت تقيم الأدب، وتقرأ المقالات والقصص القصيرة.

وتعرف الناشئون أيضاً على كبار الكتاب والنقاد أمثال: "حسن الزيات"، "الرافعي"، "المنفلوطي"، "طه حسين" وغيرهم.

خطت الصحافة خطوات كبيرة ومرت بأطوار مختلفة بين عامي 1828م و 1910م، غلب عليها الطابع الوطني والطابع الإصلاح الاجتماعي، وظهرت صحف "المقطم" و"المؤيد" و"الأستاذ" 1892م و 1900م.

أين كان لها دور بارز في الدعوة إلى الاستقلال ورفض الاحتلال الإنجليزي وكثر الحديث عن الخلافة الإسلامية، فكثرت القصائد الوطنية الحماسية والمقالات النقدية التي أخذت بيد النقاد فقدم العقاد، و"طه حسين" و"الزيات" و"المنفلوطي"، و"زكي أبو شادي"، "مصطفى صادق الرافعي" آرائهم ونظرياتهم النقدية وكانت هذه الصحف حلقة وصل بين الأدباء والنقاد وجمهور القراء.

ومن الصحف التي أسدت خدمات جليلة للأدب وللنقد نذكر "الجوانب" "الرسالة" و"الأهرام" إضافة إلى الصحف السالفة الذكر، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الصحف

نشرت نماذج لنصوص مترجمة من الإنجليزية والفرنسية وعرفت بأدبها ونشرت نصوص أخرى عرفت بالموروث والتراث العربي وتوسطت صحفاً أخرى بين هذا وذاك.

المكتبات والجمعيات العلمية: كانت المخطوطات والكتب القديمة متناثرة في المساجد والمكتبات الشخصية (بيوت العلماء) لا يستطيع تداولها العامة. وبفضل انتشار التعليم، الطباعة، الصحافة، ونمو الوعي عند الناس جمعت هذه الكتب في المكتبات التابعة للدولة، فأنشأ "الخدوي إسماعيل" "دار الكتب المصرية" التي أدت دوراً كبيراً في الحياة الأدبية والثقافية في مصر ولا زال صيتها ذائعاً لحد الآن وقد وفرت هذه الدار للمصريين خاصة وللعرب عامة زاداً كبيراً من الكتب التراثية التي كانت خبيئة منذ عقود من الزمن.

وطبعت هذه الدار ونشرت كتب التراث العربي والكتب التي ألفت حديثاً، وفتحت المجال واسعاً للباحثين والناشرين في شتى المجالات وصار للدار فروع في الكثير من مدن مصر.

وزاد عدد المكتبات بازدياد المعاهد والمدارس والجمعيات العلمية في مختلف البلاد العربية، بل صارت الجامعة الواحدة تضم عدة مكتبات. فعم العلم وانتشرت الثقافة، القراءة ونشطت الحركة الأدبية والنقدية.

البعثات العلمية: بدأت البعثات العلمية في عهد "محمد علي" الذي أراد أن ينقل علوم الغربيين وثقافتهم إلى البلاد العربية، خدمة لخلافته فأرسل بعض الدارسين من الأزهر إلى أوروبا للتعرف على ثقافة الآخر (فرنسا خاصة) وعاد هؤلاء ينقلون من الثقافة الفرنسية.

ومن أشهر المستفيدين من البعثات العلمية "رفاعة الطهطاوي" الذي اشتغل في الترجمة وأدار "دار الألسن" في عهد "محمد علي" و"الخدوي إسماعيل" فترجم كتب الطب والهندسة والجغرافيا إضافة إلى عدد من الكتب في الأدب والفنون وكان من بين ما ترجمه من الأدب الغربي "نشيد فرنسا القومي" "رثاء فولتير للويس الرابع عشر" ووقائع تليماك لافنتين" إلى "وقائع الأفلاك في أخبار تليماك".

وسار على دربه كثير من الأدباء والعلماء والمترجمين ونذكر منهم "عبد الله ابو السعود" "فتحي زغلول" "خليفة محمود" "محمد أحمد عبد الرازق" و"حسن عاصم" ولعل أبرزهم "محمد عثمان جلال" الذي نقل من الأدب الفرنسي وترجم "روايات موليير" وبعض روايات "راسين".

ومن الأعمال المترجمة شعراً والتي أثرت في الأدب والنقد ملحمة الشاعر الإغريقي "هوميروس" المعروفة بالإلياذة والتي ترجمها إلى العربية سليمان البستاني، كما نقلت أعمال من الآداب الشرقية إلى اللغة العربية (الأدب الفارسي -رباعيات الخيام).

ونقلت القصائد المتنوعة من الأدبيين الفرنسي والإنجليزي إلى العربية كأعمال "بودلير" و"شكسبير" و"لامارتين" و"ميلتون" صاحب "الفردوس المفقود".

الإستشراق:

يعد الإستشراق عاملاً من عوامل تحريك الحياة الأدبية والنقدية، ذلك أن اهتمام مفكري، مستشركي الغرب انصب آنذاك حول الثقافة والفكر الفرسيين فعكفوا على تعلم اللغة العربية ونشطوا في مجال البحث في مختلف كتب التراث ومخطوطاته، جمعوها، حققوها صنفوها ورتبوها.

وأدلوا بآرائهم في الكثير من قضايا الأدب والنقد العربي، وبحثوا في طبيعته، جوهره وحقيقته وتعرضوا لتقييم الأدباء النقاد العرب وهذا ما استثار حمية هؤلاء وجعلهم ينبرون في الدفاع عن تراثهم، يصححون ويصوبون الأخطاء ويطعنون في الشبهات التي جاء بها المستشرقون.